الحداثة

Mohamed Rabie

تثير كلمة "الحداثة" تحفظات الكثير من الناس في الدول النامية وعامة المجتمعات التقليدية، وذلك لاعتقادهم بأن من يدعو إلى الحداثة يدعو إلى التوجه نحو الغرب وتبني نمط حياته وقيمه على حساب الموروث من قيم وتقاليد وطرق حياة في بلاده. لكن الحداثة لا تعني التوجه نحو تبني طريقة حياة غير تقليدية، بل تعني الاعتراف بأن الحياة هي عملية لا تتوقف عن التطور والتحول بأبعادها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية، وأنه يتم من خلال العملية هذه مراجعة إنجازات الماضي القريب والبعيد، وتحديد معطيات الحياة في ضوء إمكانات الحاضر والتطلعات المستقبلية، ودراسة اتجاهات التغير والتحول المتوقعة في المستقبل. ولما كانت عملية التطور الحضاري لا تتوقف عن المسير، وأن المعطيات الحياتية الاقتصادية وغير الاقتصادية تبدو أكثر ثراء وتنوعاً يوماً بعد يوم، فإن الحداثة تصبح والحالة هذه هي الانتقال من حياة ماضوية قليلة العطاء والتنوع نسبياً إلى حياة أكثر عطاء وتنوعا يجسدها الواقع المستجد على الأرض. وتحاول هذه الدراسة إلقاء بعض الضوء على مفهوم الحداثة وأهمية التحديث الفكري والثقافي والعلمي بالنسبة للشعوب الفقيرة والمتخلفة عن الزمن الذي تعيش فيه.

لذلك يمكن القول أن الحداثة هي التوجه نحو العيش في الحاضر كما تجسده معطيات حياة المجتمعات الأكثر تقدماً من النواحي العلمية والفكرية والتكنولوجية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والاستفادة مما لدى تلك المجتمعات من إمكانات مادية وغير مادية وتوظيفها في رفع إنتاجية الاقتصادات الوطنية، وتحسين نوعية الحياة بوجه عام. ولما كانت نوعية الحياة تحكمها معطيات متغيرة ذات طبيعة اقتصادية وتكنولوجية وعلمية وسياسية وثقافية واجتماعية لا تتوقف عن التطور، فإن الحداثة تصبح حركة تستهدف تمكين الإنسان من التحرر من المعيقات المادية والاجتماعية والفكرية والثقافية التي تحول دون تمتعه بحياته واستغلال إمكاناته العقلية وملكاته الفكرية ومواهبه الخلاقة على أفضل وجه ممكن. ولما كان الواقع هو محطة زمنية قصيرة بين الماضي والمستقبل، وذلك لأن كل يوم ينتهي يصبح جزءاً من الماضي، فيما يكون كل يوم قادم هو جزء من المستقبل، فإن الحداثة لا بد وأن تعني أيضاً التفكير في المستقبل والعمل على المشاركة في صنعه، ومحاولة تجاوز الماضي وما يكون قد فقد صلاحيته من تركته الفكرية والاجتماعية والثقافية. إن عدم التفكير في المستقبل بعلمية وواقعية، والفشل في توفير الشروط اللازمة للمشاركة في صنعه والاستفادة من إنجازاته المتوقعه في مختلف مجالات الحياة من شبه المؤكد أن يُحوِّل الحاضر بسرعة إلى حزء من الماضي الذي قضى نحبه وانتهى زمنه.

بدأت الحداثة في أوروبا في القرن الثامن عشر، وذلك في أعقاب تحرر معظم شعوب القارة الأوروبية من هيمنة الكنيسة وفكرها اللاهوتي، والقضاء على نظم الحكم الوراثية الاستبدادية، وحدوث تحول فكري وفلسفي واسع وثورات شعبية نادت بالتحرر والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات. ومع المناداة بالعدل والمساواة والحرية، جاءت المطالبة بالديمقراطية والتأكيد على حرية الفكر والرأي والإيمان والعبادة. أما استبداد نظم الحكم الوراثية، فقد أدى إلى مطالبة الشعوب بعقد اجتماعي ينظم العلاقة بين السلطة والشعب بما يضمن الحريات العامة والعدالة في توزيع الموارد المتاحة بين الناس جميعا، مع توفير الخدمات الأساسية مثل التعليم والعناية الصحية ومحاربة الفقر. إضافة إلى ذلك، شملت موجة الحداثة حدوث تقدم علمي واقتصادي وتكنولوجي وثقافي فتح أمام الإنسان فرصاً جديدة وكثيرة للعمل والإنتاج لم تكن متوفرة في الماضي.

ولقد نتج عن هذه التطورات تحرير الإنسان من القيود العقائدية والعادات الاجتماعية التقليدية والمكبلات السياسية التي حرمته من حرية الفكر والعمل والمشاركة في العملية السياسية ردحا طويلا من الزمن. الأمر الذي مكنه من العيش حياة أكثر عطاء وعدلاً وحرية وإنسانية وطمأنية. نتيجة لذلك كله أصبح بإمكان الإنسان الأوروبي أن يتحكم في حياته إلى حد بعيد، وأن يُسهم في تشكيل مستقبله بشكل إرادي، وأن يوظف ملكاته العقلية وقواه الجسدية ومواهبه المتعددة لإثراء حياته وحياة غيره من الناس، وأن يستحوذ على القدرة لمساعدة الفقراء والبؤساء، والعناية بالبيئة. ومع أن بعض المحافظين اجتماعيا والمتزمتين دينيا رأوا في هذه التحولات ابتعادا عن روحانيات الحياة واستبدالها بماديات مغرية؛ إلا أن الأحداث اللاحقة أثبتت أن أخلاقيات المجتمع الجديد أصبحت أفضل من أخلاقيات المجتمعات السابقة التي خضعت ليسطرة نزعة دينية واجتماعية محافظة. لكن الشيء الذي لم تنتبه له تلك الثورة السلمية كان الثقافة بما تعنيه من قيم إنسانية وتعاطف مع الشعوب الغريبة عنها والأقليات الفقيرة في بلادها.

لذلك كانت الحرية والقوة التي حصلت عليها تلك الشعوب ضمن عملية الحداثة قد اتجهت إلى التركيز على ماديات الحياة، خاصة بعد نجاحها في التخلص من الروحانيات التي جسدتها النزعة الإيمانية المرتبطة بالدين. لذلك اندفعت الشعوب التي تحررت من هيمنة الكنيسة على الحياة إلى استخدام عناصر القوة التي استحوذت عليها للمشاركة الفاعلة في غزو الشعوب الفقيرة والضعيفة، والقيام باستعمارها وسرقة مواردها الطبيعية، وأحيانا، كما حصل في أفريقيا، سرقة شبابها وبيعهم عبيدا للعمل في المزارع والبيوت، خاصة في أمريكا الشمالية. لذلك علينا أن ندرك أن هناك فرق كبير بين الثقافة والحضارة، علما بأن الثقافة هي إحدى مكونات الحضارة الرئيسية. تتكون الثقافة من كل شيء غير مادي مثل القيم والأخلاق والسلوكيات والعواطف والفنون والآداب واللغات، أما الحضارة فتشمل كل هذه الأمور إضافة إلى العلوم والمصانع والشركات الكبرى والاقتصاد والتكنولوجيا. ويشير التاريخ إلى أنه من غير الممكن أن ينتقل مجتمع من حضارة لأخرى أكثر إنتاجية من دون حدوث تغير كبير ونوعي في نمط إنتاجه الاقتصادي ومكونات ثقافته، وهياكله الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية، لأن كل حضارة لها مجتمعها وثقافتها ونمط إنتاجها وهياكلها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخاصة. والآن دعنا نمر سريعا على الحضارات المتتابعة التي شيدتها الإنسانية وعاشت فيها.

كانت أول حضارة بدائية يكونها الإنسان هي حضارة القبلية، وهذه حضارة اعتمدت على الصيد والرعي والغزو حيث كان الإنسان القبلي يتنقل من مكان لآخر سعيا للهروب من البرد في الشتاء والحر في الصيف، والإقامة المؤقتة في الربيع والخريف حيث تكثر الأعشاب والخضروات والفواكه. وفي ضوء عدم استقرار الحياة، واضطرار القبلي للترحال المستمر، فإن القبلي لم يكن بإمكانه أن يمتلك أشياء مادية كثيرة، ما جعل ممتلكاته تقتصر على خيمة وسيف وبعض المواشي كالأغنام والحيوانات الأليفة، خاصة الخيل والحمير والجمال. ولما كان الراعي مضطرا لقضاء معظم وقته مع الأغنام والخراف، فإن علاقته بزوجته وأولاده كانت ضعيفة تفتقر إلى الحب، خاصة في ضوء ثقافة بدوية تعامل المرأة كخادمة وظيفتها العناية بالأطفال والشيوخ والمرضى وخدمة زوجها. من ناحية ثانية، كان الزوج يعود في المساء متعبا وبحاجة لراحة، ما حرمه وحرم أولاده من التفاعل مع بعضهم البعض. وحتى حين كان يتوفر لدي البدوي الوقت، فإنه لم يخصص شيئا منه لعائلته، وإنما كان يذهب إلى ديوانية القبيلة حيث يتجمع الرجال كل مساء.

بعد نحو عشرين ألف سنة من تبلور عصر البداوة البدائي، اكتشف الإنسان دورة حياة النباتات وقام بتطوير فن زراعة الأرض وإنتاج ما يحتاجه من خضار وفواكه وبقوليات وغير ذلك. وهذا مكن الإنسان الزراعي من امتلاك قطعة من الأرض، وتشييد بيت متواضع على مزرعته والإقامة عليها مع جميع أفراد أسرته. ولما كان الرجل وزوجته وأولادهم يعملون معا في مزرعتهم، فإن حب الأب لأطفاله وحب المرأة لزوجها نما تدريجيا ليغير طبيعة العلاقة الأسرية إلى علاقة ود تقوم على حب متبادل. ومع أن حياة الاستقرار مكنت الفلاح من امتلاك أشياء مادية عديدة إضافة إلى الأرض، إلا أن طموحاته المادية بقيت محصورة في الأشياء التي تحتاجها مهنة الزراعة والفلاحة. ومع استقرار مهنة الزراعة وتفوقها من حيث العطاء وراحة البال والسلم، ظهر الإقطاعي الذي قام باستخدام القوة والاستيلاء على أفضل الأراضي الزراعية ومصادر المياه، واتجه إلى استعباد الفقراء واستغلال الضعفاء. ولقد جاء رد الفعل في ظهور الديانات التي طالبت القوي بالتعاطف مع الضعيف والثري بمساعدة الفقير. وهكذا أسهمت عوامل الاستقرار، وتفاعل أفراد الأسرة الواحدة مع بعضهم بعضا في أجواء سادها الحب المتبادل، ودعوة الديانات إلى التكافل الاجتماعي في تبلور ثقافة جديدة ركزت على السلم والصدق والأمانة والإخلاص في العمل والعدل. وهذه هي الثقافة التي خلقت الإنسان المتحضر بالمعنى الإنساني والروحي وليس المادي. لكن حين قام قادة الديانات بالادعاء بأنهم على تواصل مع خالق الكون، وأن كل ما لديهم من أوامر ونواهي مستمدة من ذلك الخالق، فإن دور الدين في حياة المجتمع الزراعي أصبح سلبيا، خاصة وأن كل ديانة تقريبا ادعت أنها الديانة الصحيحة دون غيرها، ما جعلها تسبب في تجزئة المجتمعات وتدمير روحها الإنساني، وخلق العداوات بين الناس، وحرمانهم من تحقيق المزيد من التقدم في مختلف مجالات الحياة.

ومع بداية الفترة الانتقالية من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة في القرن الخامس عشر، شهدت الدول التي كانت أكثر وعيا ومعاناة من نظام الإقطاع والمؤسسة الدينية ثورات واسعة إدت خلال ثلاثة قرون إلى القضاء على نظام الإقطاع وتجريد المؤسسة الدينية من صلاحياتها الدنيوية، وحرمانها من التحكم في مصائر أتباعها. لكن المجتمع الصناعي الذي تبلور في منتصف القرن الثامن عشر كان مجتمعا ماديا بلا روح، ومع أنه حقق تقدما هائلا في عمليات الإنتاج الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي، إلا أنه تحول إلى مجتمع ظالم. لقد تسببت المصانع في خلق جاتوهات على شكل تجمعات سكنية قذرة وخالية من الخدمات بكافة صورها، وذلك لإقامة عمال الصناعة فيها، ما جعل عمال الصناعة يدركون الحاجة إلى تغيير ظروف حياتهم المعيشية، ما جعلهم يحولون الجيتوات التي عاشوا فيها إلى مراكز تجمع وتنظيم عمالية وساحات لإنجاز أعمال جماعية هادفة. وفي ضوء قيام أصحاب رؤوس الأموال والمصانع باستغلال عمال الصناعة وابتزازهم، خاصة النساء والأطفال منهم، فإن درجة الوعي لدى العمال نمت بسرعة، خاصة ما كان يتعلق منها بأحوالهم المعيشية ومواقعهم الاجتماعية من حياة المجتمع الصناعي. وهذا دفعهم إلى تكوين اتحادات عمالية قاموا بتوظيفها للمطالبة بتحسين الأجور وأماكن العمل، والاهتمام بأماكن السكن، والعناية بالبيئة. وحين حققوا أهدافهم هذه اتجهت كافة فئات المجتمع الصناعي، بمن فيهم المؤسسة الدينية إلى الاعتداء على حقوق الشعوب الأخرى واستعمار بلادهم وسرقة ثرواتهم الطبيعية وحرمانهم من الحرية والتقدم حتى يومنا هذا.

من ناحية ثانية، إذا قارنا ما حدث في المدن الصناعية الأوروبية مع ما حدث في المدن التجارية والحرفية العربية، فسوف نلاحظ أن الفلاح والبدوي العربي ما يزال على حاله من البساطة والجهل وضعف الوعي، وذلك على الرغم من مرور عشرات السنين على هجرته من الأرياف والبوادي إلى مدن عربية عريقة في بلاد مثل اليمن والعراق والمغرب ومصر والسودان. إذ لا يزال الإنسان الذي ينحدر من أصل قروي يعطي أهمية كبيرة لعائلته، فيما لا يعطي أهمية تذكر للبيئة التي تكتنف حياته من كل جانب، ما جعل الكثير منهم يرمي ما لديه من نفايات من شبابيك بيوتهم في شوارع المدينة التي يقيمون فيها، فيما يرمي الأثرياء منهم النفايات من شبابيك سياراتهم الفخمة. وبسبب هذه العقلية وهذه التصرفات تم ترييف بعض المدن العربية العريقة مثل الاسكندرية ودمشق وبيروت والدار البيضا، وتعشير مدن أخرى مثل صنعاء وعمان وبغداد ومدن الدول المنتجة للنفط. إن ما أعنيه بالترييف والتعشير هنا هو طغيان ثقافة الريف على ثقافة المدينة في الدول التي هاجرت أعداد كبيرة فيها من الريف إلى المدينة، وطغيان ثقافة العشيرة على ثقافة المدينة في الدول التي هاجرت أعداد كبيرة فيها من البادية إلى المدينة. وهكذا خسرنا المدنية العربية العريقة بأسواقها الجميلة من دون أن نحرر قرية أو بادية من الفقر أو الجهل.

مع استمرار عملية التطور في مختلف ميادين الحياة في المجتمع الصناعي، أخذت نظرة الإنسان إلى نفسه وغيره من الناس والطبيعة تتغير بسرعة كبيرة؛ الأمر الذي تسبب في تغير الثقافة القديمة بصورة جذرية مع نضوج المجتمع

الصناعي. نتيجة لذلك حلت ثقافة الصناعة محل ثقافة الزراعة التي انتهت صلاحيتها، إذ قامت الثقافة الجديدة بتغيير التقاليد والقيم والمواقف وطرق التفكير، خاصة ما يتعلق بتقاليد العمل والموقف من الوقت والحياة والطبيعة وفكرتي الحرية والديمقراطية. ومع حدوث الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في بريطانيا، ووصولها إلى مختلف الدول الأوروبية وأمريكا قبل نهاية ذلك القرن، فإن انتقال أوروبا من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة اكتمل مع نهاية القرن التاسع عشر. ولقد نتج عن ذلك تغيير الهياكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمعطيات الثقافية بشكل جذري، ما تسبب في تراجع أهمية المفاهيم الدينية الغيبية والعصبية لصالح الإنسان والإنسانية، والسعي نحو تحسين الأحوال المعيشية من خلال التوجه نحو القيم المادية على حساب القيم الروحانية.

أما في البلاد العربية، وفي ضوء تريف وتعشير معظم المدن العربية، وضعف التعليم وتخلف الفكر، واستبداد نظم الحكم، وغياب الحريات العامة وشيوع الفردية، والتمسك بفكر غيبي نابع من إيمان عميق بالدين، فإن العرب فشلوا في اقتحام عصر الصناعة واللحاق بالعصر. الأمر الذي جعل من السهل على الغرب استعمار أوطانهم واستغلال ثرواتهم الطبيعية، وتحويلها إلى دول وشعوب تابعة له من النواحي السياسية والأمنية وأسواق استهلاكية لما تنتجه مصانع الغرب الصناعية من بضائع، وفي حالة عجز شبه كامل عن إدراك متطلبات التقدم والتحرر في هذا العصر. وهكذا بدلا من تضييق فجوة العلم والفكر والحرية ومستويات المعيشة بين العرب والغرب، استمرت الفجوة العلمية والفكرية والحريات العامة ونوعية الحياة ومستويات المعيشة بين الغرب والعرب تتسع يوما بعد يوم. وهذا أعطى لدول الغرب فرصة لتحويل حكام العرب إلى دمى يحركونها كما شاؤوا خدمة لمصالحهم غير الإنسانية، وذلك على حساب مصالح العرب وأوطانهم وشعوبهم، ومن أجل التحكم في مستقبلهم ومستقبل أولادهم وأحفادهم فيما بعدهم.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 60 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

الدكتور ربيع يرأس مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970من جامعة هيوستن في أمريكا. حائز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، وعدة جوائز أخرى حصل

عليها من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه ونشاطاته التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

ولما كان شعاري هو : "المعرفة التي لا نشارك غيرنا فيها هي معرفة ضائعة، وأن المشاركة تتسبب في مضاعفة عدد المعرفيين"، فإنني أطلب من كل قارئ أن يوصي بكل دراسة وكتاب يُعجبه، لأنه بذلك يُساعد من لم يتعرف على الكتاب وما فيه من فكر مفيد. إننا جميعا نشترك في مسؤولية تغيير عالمنا ليكون أكثر ميلا للسلم والعدالة والحرية. وهذا هدف سامي لا يمكن تحقيقه دون أن نشارك جميعا في نشر المعرفة والوعي في كافة بقاع الأرض التي ورثناها وعلينا أن نحافظ عليها.

بروفسور محمد عبد العزيز ربيع

Links that give an idea about me and my interests.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed

Personal site; www.yazour.com